عزمي بشارة روائيا:

إضافة جادة الى الرواية الفلسطينية وتعويض لفقرها في فلسطين الـ 48

رشاد أبوشاور

■ عزمي بشارة من فلسطينيي الـ48، أكاديمي، رجل سياسة مشارك عن حزبه في (الكنيست)، باحث ومفكر، كاتب سياسي في أحوال الفلسطينيين داخلاً، وخارجاً.

لمع اسمه في السنوات الأخيرة، فهو بات أحد (نجوم) الفضائيّات، ومتلقي الاتهامات من الجهات الأمنيّة والقضائيّة في (دولة الحاجز) أي دولة الكيان الصهيوني.

أهم كتبه الفكرية نشرت عن مركز دراسات الوحدة العربيّة في بيروت: الانتفاضة والمجتمع (الإسرائيلي) تحليل في خضّم الأحداث، المجتمع المدني دراسة نقديّة، العرب في (إسرائيل) رؤية من الداخل...

في شباط (فبراير) عام 2004 فاجأ عزمي بشارة متابعيه برواية حملت عنوان (الحاجز)، صدرت عن دار الريّس.

لم يكتف عزمي بشارة بالتدريس الجامعي، والكتابات الفكريّة والبحثيّة، وخوض غمار المعارك السياسيّة حزبيّة وفرديّة، والمحاضرات في أقطار عربيّة وأوروبيّة، والسفر والتجوال في بلاد العرب التي كانت محرّمة على فلسطيني الـ48، مشاركاً في ندوات ولقاءات وحوارات وسجالات ساخنة، مثيرة للجدل والمزيد من التهم والملاحقات.

في الداخل ثمّة خلافات حول طروحاته مع اتجاهات سياسيّة، مع الشيوعيين، والإسلاميين، وإخوتنا القوميين الناصريين، وهذه الخلافات لا أخوض فيها، وأدعها لأهلها، فدورنا نحن فلسطينيي المنافي أن نقرّب لا أن نفرّق ونعمّق الخلافات والتباينات، حتى وإن كنّا على مقربة من هذا الطرح أو ذاك.

روائياً اختار عزمي بشارة أن يكتب عن وطن تمزّقه الحواجز التي استشرت بعد (أوسلو)، في زمن وصفه المبشرون بوعوده بأنه زمن (سلام الشجعان)!

الحاجز متناسخ، متكرّر، يميّز جغرافية (الضفّة الغربيّة) وقطاع غزّة، والحياة الاجتماعية الفلسطينيّة، ويحدث آلاماً ومصائب لأسر فلسطينيّة كثيرة. الحاجز يشتت، يختطف، يعتقل، يهين، يمتهن كرامات الفلسطينيين، يستمتع بعذاباتهم وبهدلتهم. الحاجز هو فضيحة احتلال و(جيش) احتلال سادي عنصري آثم دائماً، لا تردعه مناشدات، أو تظاهرات تضامنيّة، أو فضائح الكاميرات التي تنقل للعالم انحطاط ممارسات الحاجز وأخلاقيات الحاجزين.

عزمي بشارة الفلسطيني الموجوع بهموم شعبه، وهو يتنقّل من (الناصرة) إلى (رام الله) و(القدس) و(نابلس) و(بيت لحم) و(الخليل)، وقطاع غزّة، هالته عذابات شعبه في زمن السلام، فالحواجز تمزّق الأسر، والقلوب، وهي تراجيديا وكوميديا، فكتب روايته (الحاجز)، ولم تكن صدفة أن الفصل الأوّل من الرواية حمل العنوان (وجد في بلاد الحواجز)، ممّا يذكّرنا بتلك الرواية العجيبة (أليس في بلاد العجائب)، وعجائب فلسطين هي أعاجيب الاحتلال، والسلام الكاذب أسوة بالحبل الكاذب.

في الرواية ننتقل من حكاية إلى حكاية، وهي حكايات تدور حول نفسها، تتداخل، تلتف، تتشابك ـ تماماً كالحواجز ـ وعليك أنت القارئ أن تعيد (تجميعها) وتركيبها لترى الواقع بتمام قبحه، وبكل تفاصيله.

الروائي عزمي بشارة يقدّم (الأجزاء) منثورة بين دفتي الكتاب، مختلفة الحجوم والتفاصيل والشخصيات ومزق الأمكنة، قطعاً كلعبة (الجيغزو)، وأنت من عليه أن يعيد تركيب القطع ويشيد البناء من جديد ليكتشف المزيد عن هول الحال الفلسطيني في زمن الحواجز، وصنيع (دولة الحواجز) التي لا حدود لها، ولا لجرائمها، ولا لإنسانيتها!

رواية التشظّي (الحاجز) تسخر من (مدبّر حالو)، ومن طريق (طورا بورا) الالتفافي، وهو لمن لا يعرف طريق يتجنب المضطرون لسلوكه بسبب الحاجز إلى تحمّل وعورته، ووحوله شتاءً، وغباره صيفاً، عبر الكسّارات. طريق طورا بورا يأخذ من الفلسطيني الوقت والجهد ليعود به بعد كل العناء العبثي إلى ما بعد الحاجز بأمتار، بأمتار فقط، تحت نظرات جنود غلاظ القلوب، ساخرين مستمتعين بآلام الفلسطينيين !.

في مشاهد مثل كوميديا (الفارس) المرتجلة نتابع شعبطة (أم وجد) المرأة الفلسطينيّة المكافحة، وهي تبذل جهوداً لتفادي الحاجز لعلاج ابنتها وإنقاذها من المرض...

على الحاجز يقف جنود احتلاليون فلاشا من (أثيوبيا)، فيتساءل السارد وهو يرى بعض العرب ممّن يخدمون (دولة الحاجز)، من أولئك الذين يتطوعون باختيارهم في جيش وأجهزة أمن (دولة الحاجز)، والقارئ لا يجب أن يدهشه أو يصدمه هذا الأمر ففي كل شعب يوجد ساقطون، مصلحيون، منبتّون:

ـ هل علي أن أعجب بضابط عربي على الحاجز يوجّه الأوامر لجنود يهود؟!

ويضيف لافتاً انتباه القارئ إلى نوع آخر من خدم الاحتلال و(دولة الحاجز):

ـ هناك من يخدمون (حواجز) مخفيّة لا تراها، ولكنهم يخدمونها...

لا تدور وقائع رواية (الحاجز) في الضفّة الغربيّة الفلسطينيّة، فهي في بعض فصولها تنتقل إلى العمق الفلسطيني المحتل منذ عام 48، فالأرض المزقّة بالخط الأخضر والحواجز واحدة،وهموم أهلها واحدة، وقضيتهم واحدة، وآلامهم وآمالهم واحدة.

عند الحاجز يلتقي فلسطينيون منهكون من السير على التلال والطرق، وهنا يدخل الكاتب في نفوسهم، يحلل ردود فعلهم، ما يعتمل في دواخلهم، ينقل للقارئ الغيظ الذي يكظمونه وهو يغلي حتى يفيض على وجوههم، وحتى في كلامهم الذي يبدو مواربا، مجسّداً كوميديا ما يحدث، ولا عجب أن يتردد السؤال:

ـ وين كنّا ووين صرنا؟!

بسخرية المغتاظ من جنود الاحتلال يسلّط الضوء على تفتيل جنود الحواجز لعضلاتهم، للستربتيز العضلاتي الاستعراضي المنتشي بتعذيب الفلسطيني المغتاظ من هذه المعادلة غير العادلة، وحين يفتقد الإنسان القدرة على معاقبة من يعتدي عليه فإنه يلوذ بالصبر والسخرية من النفس ومن العدو ومن الحياة.

رواية «الحاجز» لا تلخّص لأنها مكتظّة بالتفاصيل، والوقائع، والشخصيات، وفي كثير من فصولها لا يكون سوى التأمّل في تأثير الحاجز وجنود الحاجز على حياة الفلسطينيين أفراداً وجماعات.

رواية (الحاجز) ليست مكتوبة عن الفلسطيني، إنها مكتوبة له أولاً حيث يقيم داخل الوطن تحت الاحتلال أو في الشتات، لأنه وهو يقرأها سيصرخ بملء الصوت: أكل هذا يحدث لنا، لماذا، وما العمل ؟ هذه الرواية لغير الفلسطيني لا تستدرّ الشفقة، إنها كالمسرح التسجيلي تهدف إلى (التوعية) كمقدّمة للتحرك والفعل، إنها تحض، تحرّض إن توفّرت عند المتلقّي مشاعر، وضمير نزيه مبرأ من الانحياز، ضمير إنساني شريف ونقي؟!

فنياً الواقع أعطى الروائي شكله: الشظايا كتبت متشظيّة، بفصول بلغت الـ59 فصلاً، الجزء الأوّل بعنوان (وجد في بلاد الحواجز)، فصله الأوّل عنوانه (المحشوم) وهو الحاجز بالعبريّة، واختتمت بفصل (الشالونات)، بلثغة وجد، وبجمعها لشالون أي شارون...

دولة الحاجز هي في لحظة دولة الأقنعة أثناء حرب الخليج الثانية، الحرب العدوانيّة الأمريكيّة على العراق في عهد بوش الأب.

العرب في دولة الحاجز، يتسلّمون أقنعة واقية، والكاتب يرينا حالة (المسخرة) التي يؤديها بعض العرب عندما يرتدونها ويخرجون لزيارة أقاربهم في ليل القرية. كبار يتقدمون أطفالهم المقنعين الذين يسيرون وراء الأب الذي يسير كما هو الواقع في المقدمة قبل الزوجة.

الحاجز يكشف، ويفضح طبائع الناس المحجوزين، وردود أفعالهم. لا يكتفي الكاتب بتسليط الضوء على جنود الاحتلال، وهو ينقل أطراف الحديث بين المجوزين من الحديث عن فوائد الثوم في علاج الضغط ، إلى الباعة الذين يتهافتون على الحاجز لبيع بضائعهم والتي يرشون ببعضها جنود الحاجز ليغضّوا عنهم النظر ولا يتسببون لهم بالأذى، إلى كوميديا خربطة الحروف في فم الجندي الاحتلالي على الجسر الذي يقلب الخاء، والقاف، والعين، فلا يعرف المسافرون الفلسطينيون أسماءهم، وهو ما يقلب مزاج الجندي الذي يوقف الطابور، ويؤجّل سفر المسافرين الذين لا يعرفون أسماءهم، التي ينادي عليهم بها بعد تبديل حروفها!

الفلسطيني غالباً (شبح) بالنسبة (لدولة الحاجز)، والشبح كما في (الحاجز) يخاف ويخيف.

في حوار بين الأخ حنا العائد من أمريكا لزيارة أمه وأخوته، والذي يتمتع بالجنسيّة الأمريكيّة، يقول وهو يكتشف أنه رغم تميّزه بالجنسية الأمريكيّة، فإنه على الحاجز ليس سوى عربي وليس مواطناً أمريكياً، ولذا لن (تفزع) له القنصلية الأمريكية لو اعتقلوه :

ـ يعني دولة الحواجز كلها عبارة عن مواطن أمريكي صاحب امتيازات مقارنةً بالمواطن الأمريكي العربي الأصل.. أو يعني هيك شي (ص 190)

نقرأ في الرواية عن الحاجز ما يلي:

بات الحاجز شموليّاً لا يكتفي بأقل من وقت الإنسان كلّه، جهده كلّه، أعصابه كلّها. حتى النهار قد يمضي وقته أمام الحاجز. الزمن ذاته ينتظر في المكان. رام الله أصبحت تبعد يوم سفر مثل كل شيء، يوم السفر يوم، (يوم الطاحونة يوم)، كما قالوا، وقد ينتهي بغبار على الملابس ولكن من دون طحين (ص15 و16).

قد يقفل الفلسطيني راجعاً بعد يوم من الانتظار على الحاجز، فلا عمل، ولا علاج في المستشفى، ولا سفر، ولا تمشية أعمال، فقط لأن جنود الحاجز يمضون وقتهم بتعذيب الفلسطيني!

نقرأ عن الإبداع والفنّ ما يلي: والإبداع والفنّ يصوّر الواقع ليستفيد منه لا ليغيّره. وقد أقلعنا عنه منذ فترة إذ تجاوزه الواقع إبداعاً وصدقاً.

وأنا افرغ من قراءة (الحاجز) وجدتني أتساءل: لماذا لم يكتب الأدباء الفلسطينيون في الضفّة والقطاع رواية (الحاجز) أو ما يشبهها، وكتبها أكاديمي، باحث، سياسي فلسطيني من فلسطين الـ48، لم يعرف عنه من قبل أنه روائي، أو قاص، أو شاعر، أو ناقد، أو صحافي يكتب المقالة يومياً، وهؤلاء جميعاً يعانون من (الحاجز) ككلّ أبناء وبنات شعبهم من فلسطيني (بلاد الحواجز)؟!

ووجدتني أستنتج الجواب الذي آمل أن يثير حواراً حول الإبداع والفنّ والكتابة من وجهة نظر (المبدعين) الفلسطينيين: لم يكتبوا مثيل هذا العمل لأنهم يترفّعون عن الواقع الذي تجاوز الفنّ والإبداع كما كتب بشارة، بحجّة رفضهم للمباشرة، وسعيهم للخلود بنصوص تدّعي الحداثة، وما بعد الحداثة، نصوص غالباً لا تعني أحداً، ولا يفهمها أحد، ولا تضيف شيئاً، وغيابها لا يشكّل خسارة.

«الحاجز» رواية مكتوبة عن واقع، شكلها الفنّي أخذه الكاتب من الواقع، ولذا تحرر من الشكل الروائي التقليدي، وقدم شكلاً فنياً برؤية يمكن اعتبارها إضافة للرواية الفلسطينية والعربيّة.

«الحاجز» تشد رغم عدم وجود حبكة تربط فصولها، وهي لا ذروة لأحداثها المفتتة، لا شخصيات تنمو ـ الشخصية المحورية السالبة هي الحاجز نفسه ـ ولا مكان ثابتا محددا، وهي متباينة الفصول، ولذا تبدو قابلة للقراءة عشوائياً دون تسلسل، وهذا جزء من بنائها المفتوح والبارع والمقصود.

في روايته الثانية (حب في منطقة الظلّ) انتقل عزمي بشارة نقلة جديدة، فالحاجز هو بين داخل فلسطين (كلّها) ما احتلّ عام 48 وما احتلّ عام 67، وخارج شتاتي...

يلتقي عمر بناديا في لندن، وبينهما تنشأ علاقة حب، ويفترقان، فيكون التواصل بينهما بـ(الشاتنغ) عبر الإنترنت، وبالتسمّر أمام شاشة الكمبيوتر.

ناديا فلسطينيّة ولدت في لبنان لأب لاجئ، درست في لندن، تحظى برعاية عمّها وأخوتها بعد موت والدها، غير موظّفة وهي تتنقّل بين أعمال غير ثابتة في لندن.

عمر فلسطيني من منطقة الجليل، أكاديمي، متواضع وعملي، يعرف بشؤون النجارة وأصناف الخشب، قلق، عارف بالمجتمع المحلّي وأمراضه وتعقيدات حياته منذ ضياع فلسطين وتأسيس (دولة الحاجز) .

يقصّ عمر وناديا واحدهما على الآخر تاريخ أسرتيهما، أفكارهما، تجاربهما المختلفة بين داخل تحت الاحتلال منذ عام 48، وخارج هو التشرّد والغربة والحنين، يغاران، يحدران، يتشوّق واحدهما للآخر، يفتقده، يعاتبه، يماحكه، يجادله بتوتر أحياناً وبود أحياناً...

ناديا وعمر فلسطينيّان من لحم ودم، ليسا فكرتين، ولا وسيلتين ناقلتين لأفكار مجرّدة، إنهما مشاعر، انكسارات، أحلام، وهما مع خصوصيتهما ككائنين بشريين يجسدان مأساة الفلسطينيين داخلاً وخارجاً، إنهما الواحد المقسوم نصفين.

نحن هنا في زمن لا تحل فيه التكنولوجيا مشكلة تواصل الفلسطينيين، ولكننا أمام فضيحة القرن العشرين والحادي والعشرين، حيث يبتر الإنسان عن أرضه، وبيته، وذويه، ويحرم ممن يحب في حين يستقبل الروسي، والأثيوبي، والأمريكي، و..يمنح بيته (لعائد) محتل، أباحت له القوة سرقة وطن وتدمير حياة شعب وشقّه نصفين.

شاب وشابة أمام شاشتي الكمبيوتر، يحدران على بعضهما، يغاران، ينرفزان بعد أن صارت تلك الشاشة بيتهما وموئلهما، هي في (بيروت) أو (لندن)، وهو في (الناصرة)، فمتى يلتقيان وبينهما أسرة؟!

هذه الرواية تتمّة لرواية «الحاجز»، هي الفصل الثاني من فصول حياة الفلسطيني، وهي قابلة للمسرحة، ليربط بينهما راو، أو جوقة، فنرى شاباً وشابة ينتظران لا كما ينتظر جودو، ولكن موقفاً من كل من يشاهد ويسمع، فالغائب هنا هو الضمير الإنساني، والحاضر هو الظلم والعدوان والقسوة.

تتضح شخصية عمر من خلال سرده لتجربة الصحافة الفلسطينيّة بعد تدمير فلسطين أرضاً وشعباً عام 48.

عام 48 انهارت الصحافة الفلسطينيّة التي كانت مزدهرة، وفي مقدمة الصحافة العربيّة بعد مصر، ولم يعد أحد يجرؤ على توظيف ماله في تأسيس صحافة من جديد بعد أن تحوّل اسم فلسطين، وباتت قوانين الاحتلال تضع سقفاً لكل ما هو عربي فلسطيني.

بعد سنوات تنشأ صحافة تافهة، منافقة، إثاريّة، فيضطر عمر الذي بلا عمل، الغاضب المتمرّد، للعمل في إحداها، ويتعرّض لمواقف يرفضها، منها انتداب الصحيفة له لمرافقة رئيس وزراء (دولة الحاجز)، ومنها مسابقة الجمال المحليّة المهينة للمرأة العربيّة، ولآدمية المرأة كائنٍ بشري بشكل عام، مما يدفع عمر لكتابة مقالة فضائحية عن (أعضاء) لجنة المسابقة .

نقيض عمر هو عصام المنافق الوصولي، (الاندماجي)، والذي يرقّى إلى منصب رئيس تحرير في حين تخسف مرتبة عمر إلى مجرّد مصحح، ويسجن بتهمة القذف، ومن خلال سرده لتجربة السجن لثلاثة أشهر نتعرّف على ظروف السجن، والسجناء، وبخاصة الجنائيين الذي يزج به معهم.

شقيقة عمر (وجد) الحاميّة تسوّي له وضعه وتنقذه من السجن لفترة طويلة، وهي شخصيّة ديناميكيّة، تتعامل مع الواقع كما هو، ولا تخضع له، حاضرة رغم المساحة الصغيرة المعطاة لها في الرواية.

في رواية (الحاجز) التقينا بوجد وعمر، وهما صغيرين، وهنا في رواية (حب في منطقة الظلّ) نلتقي بوجد وعمر شابين كبيرين، ولكنهما ليسا هما نفسيهما وإن حملا الاسمين نفسيهما. يبدو أن (بشارة) معجب بهذين الإسمين، وأنهما أثيران على نفسه.

في الرواية قصص كثيرة عن السجن والسجناء، وهذا ما يدفع دنيا أن تكتب لعمر وهي تسمع هذه القصص:

ـ واو حبيبي، كل قصّة بتصلح لكتاب.. (ص 205).

نعم: كل قصّة تصلح في كتاب، وقصص الفلسطينيين تصلح لأن تكتب في كتب كثيرة، تروى حتى لا تضيع، لتحفظها الأجيال الآتية، لتعرف كم كابد من عاش المصائب والنكبات، والفراق، والموت حنيناً وحباً، المهم أن تكتب، أن تجد من يكتبها بفن وبراعة.

حتى لا تضيع الحكايات، وتنسى، شمّر الباحث والأكاديمي والسياسي عزمي بشارة وكتب وسط اكتظاظ حياته اليوميّة روايتيه.

كيف تنتهي رواية (حب في منطقة الظلّ)؟ هل يتزوّج الحبيبان الفلسطينيّان و..توتة توتة خلصت الحدوتة؟

بعد اللقاء الثالث في (لندن)، وقضاء أسبوع معاً، ما عاد عمر ودنيا يتحادثان عبر الكمبيوتر والإنترنت (شاتنغ)، لقد صارت الحياة بدون شاتنغ. صارا يجلسان أمام شاشة الكمبيوتر ولا يتكاتبان (يتشاتتان)، فالواقع يحرمهما من تكوين أسرة فلسطينيّة في مكانهما الطبيعي، في وطنهما، وعمر لا يمكن أن (يهاجر) وينضم للايين المشردين اللاجئين، وهو لا يرضى بأن يقدّم تنازلات ورشاوى (لجهات) تسهّل له إحضار دنيا ومنحها المواطنة في (دولة الحاجز) .

نصفا الفلسطيني لا يلتقيان بالشاتنغ، أو الحلّ الفردي، ولذا تواجه العلاقة مأزقاً لا بدّ من حلّه، والرواية تنفتح هكذا على السؤال المصيري عن الحل الإنساني العادل.

في الفصول لأخيرة المسرودة جيّداً يغادر عمر مع (عصام) رئيس تحرير الصحيفة العربية، إلى بلد عربي خليجي في مهمة صحافية، وهناك يلتقي عمر بجميلة عشيقة عمه صلاح، والتي استقرّت في ذلك البلد، واحترفت الصحافة وحملت جنسية جديدة.

وفي حين تكون جميلة (الخبيرة) المجرّبة على السرير مع عمر المتأبّي على (التواصل معها) ، وتفشل عملية التواصل الجنسي بين جميلة وعمر ليس لأنها أكبر منه بعشرة أعوام، ولأنها عشيقة عمّه صلاح في ما مضى، ولكن لأن عمر متعلّق بدنيا ولا يريد أن (يخونها) .

يفاجأ عمر وهو في البلد العربي الخليجي بنبأ موت عمّه صلاح، نتيجة جريمة مدبّرة غامضة، فيضطر للمغادرة والعودة إلى (دولة الحاجز) . يلتقي بشقيقته (وجد) التي تستقبله في (المطار)، يتوهّم أنه رأى دنيا تستقبله في المطار وأنها أرته نفسها ثمّ اختبأت ، وإذ يستيقظ يسأل عنها، فتخبره وجد أن دنيا أرسلت برقيّة عزاء بالعمّ صلاح الذي أقاموا له عزاءً في بيروت.

تنتهي فصول الرواية التي لا تنتهي، بقصصها التي تستحق كل واحدة منها كتاباً، لتتركنا مع الأسئلة الحارقة المؤرّقة.

روايتا عزمي بشارة قدمتاه لنا روائيا جادا أضاف للرواية الفلسطينية، وعوّض فقر الرواية في الـ48، وربّما بعمليه الروائيين الجادين هذين يحرّض آخرين على استئناف الكتابة، خاصة ممن تميزو بالموهبة ولكنهم تقاعسوا بعد نشر عمل أو عملين بحجج غير مقنعة...

ترى ماذا سيكون العمل الروائي الثالث لهذا الكاتب، والمفكّر، ورجل السياسة، الذي ستجد ما تختلف معه حوله، ولكنك بالقطع ستنظر إلى جهوده باحترام يستحقّه؟

---

* رواية «الحاجز»، يصفها عزمي بشارة بأنها: شظايا رواية، صدرت عام 2004 عن دار الريّس.

* رواية (حب في منطقة الظلّ)، يصفها عزمي بشارة على الغلاف بخط ناعم تحت العنوان الرئيسي بأنها: رواية شظايا مكان.. صدرت عام 2005 عن منشورات (ميتافورا) حيفا.

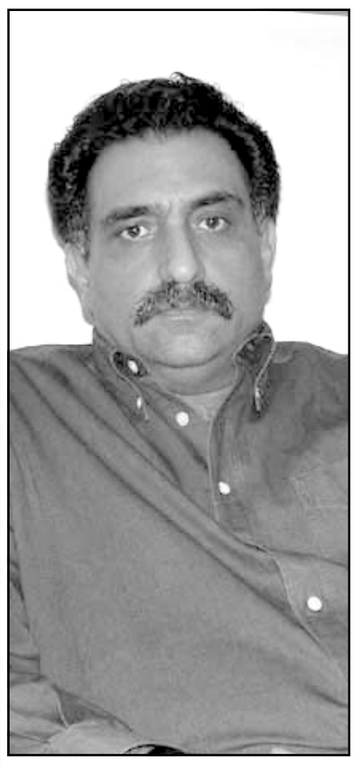

عزمي بشارة

أورهان باموق يتحدث عن الحرية المطلقة في العدد الجديد من «وجهات نظر» ورئيس التحرير يخشى من وصول الحوار العربي الغربي لطريق مسدود

القاهرة ـ «القدس العربي»:

صدر العدد الجديد من شهرية «الكتب وجهات نظر» وكان بين أبرز ما قدمه العدد الجديد تلك المحاضرة الفذة التي ألقاها «أورهان باموق» التركي الفائز بجائزة نوبل في الشهر الماضي، ضمن فعاليات المهرجان العالمي للأدب الذي نظمته الجمعية الدولية للشعراء وكتاب المسرح والمحررين وكتاب المقالة PEN بنيويورك في 2006/4/25،

ويحكي باموق في محاضرته عن رحلة رافق فيها كل من آرثر ميللر وهارولد بنتر داخل تركيا عام 1985 عندما قررا أن يزورا تركيا تضامنا مع الكتاب والشعراء الذين كانوا يقضون فترات اعتقال في السجون التركية في قضايا رأي بسبب مواقفهم السياسية.

يحاول باموق في محاضرته التأكيد على الانحياز المطلق لحرية التعبير والحرية بالمفهوم العام وينتقد مواقف كتاب اليسار الذي سبق له ودافع عنهم، ويقول اننا يجب أن نلتف حول الحرية مهما كان الثمن ومهما كان المصدر، ويحكي قصة تؤكد مساءه مع كاتب هندي معروف وجاء الى تركيا مندوبا للأمم المتحدة لكتابة تقرير عن أوضاع حقوق الانسان في تركيا، يقول باموق: بادرني السيد الهندي بتوجيه سؤال لا يزال صداه يتردد بشكل غريب داخل عقلي، سألني: ما الذي يجري في بلدك وترغب في سبر أغواره في رواياتك لكنك لا تحاول الاقتراب منه بسبب محظورات شرعية؟ ويضيف باموق: بعد السؤال مرت فترة صمت طالت ووجدت نفسي في خضم تفكير عميق، غرقت في تساؤل ديستويفيسكي ذاتي موجع، وكان واضحا أن السيد القادم من الأمم المتحدة يسألني عن المسكوت عنه في بلدي، نتيجة للمحرمات والمحظورات الشرعية، والسياسات القامعة، لكنه صاغ السؤال في اطار ما أكتبه من روايات لأنه مهذب، أما أنا، وفي ضوء تجربتي، فقد أخذت السؤال في اطار معناه الحرفي، ففي تركيا، وخلال عشر سنوات مضت، كان هناك العديد من الموضوعات التي أغلقت القوانين وسياسات الدولة القمعية، أبواب الحوار حولها، لكنني، وباستعراض هذه الموضوعات الواحد تلو الآخر، لم أجد موضوعا واحدا أرغب في سبر أغواره في رواياتي، رغم ذلك أدركت أنني سأقدم انطباعا خاطئا اذا ما قلت أنه لا يوجد ما أرغب في الكتابة عنه، في رواياتي، ولا أستطيع مناقشته، لأنني كنت قد بدأت بالفعل تناول كل ذلك بشكل علني ولكن خارج رواياتي لمجرد أنها موضوعات محظورة كان يصيبني بالغضب، ويضيف باموق في محاضرته، وبينما كانت كل تلك الأفكار تعبر خاطري، شعرت فجأة بخجل من صمتي الذي طال واستقر في يقيني أن حرية التعبير لها جذورها المرتبطة بالكبرياء وهي في جوهرها تعبير عن الكرامة الانسانية، لقد عرفت على المستوى الشخصي، كتابا اختاروا طرح قضايا محظورة لمجرد أنها محظورة، أظن أنني غير مختلف لأنه وعندما يوجد كاتب آخر في دار أخرى، ليس حرا، فهذا معناه عدم وجود كاتب حر، هذه حقا، هي الروح التي تشكل التضامن الذي تشعر به الجمعية الدولية للشعراء ويشعر به الكتاب في أنحاء العالم كله.

أما مقدمة العدد فجاءت كالمعتاد لرئيس تحرير «وجهات نظر» سلامة أحمد سلامة تحت عنوان «تحديث الخطاب الاسلامي للغرب»، يناقش فيها سلامة مسألة التسامح والتفاهم والحوار والتقارب بين أوروبا والعرب والمسلمين في حقب مختلفة، ويتساءل عن الانقلاب الذي حدث في الرؤية الغربية، ويعبر سلامة عن خشيته من أن تكون العلاقات بين الاسلام والغرب قد دخلت مرحلة حرجة، تتحرك في ملفات مفرغة من الفعل ورد الفعل الذي يمكن أن ينسف جسور التواصل ويزكي نار الخصومة وينزل أضرارا جسيمة بملايين المسلمين والعرب المقيمين في أوروبا وأمريكا ويقول سلامة: ان تحسين صورة الاسلام لن يتحقق من خلال محاولة دعوة الغرب أو هدايته الى الاسلام أو اقناع الفاتيكان ورجال الدين المسيحي بصحة المعتقدات والتصورات الاسلامية، كما قرأ في الخطابات والرسائل والمقالات التي حررها علماء الدين والافتاء وأئمة الأزهر والمؤسسات الاسلامية موجهة الى بابا الفاتيكان أخيرا على صفحات الصحف العربية. ويضيف سلامة ان المطلوب هو التعريف بالاسلام ومبادئه واستثمار منظمة القيم التي تحكم هذه المجتمعات في الدفاع عن الحرية والمساواة والعدالة الدولية، ومبادئ التنوع الثقافي والتعددية السياسية والتكامل الحضاري للانسانية، دون أن نفرض معتقداتنا على الآخرين، ودون أن نجد أنفسنا في موقف يعادي حرية الفكر والتعبير.

بالاضافة الى ذلك فقد تضمن العدد مقالا لعالم الاقتصاد الفائز بنوبل 1998 «أمارتياسين» تحت عنوان «في البحث عما يجمعنا، سراب الهوية» وقد ترجمه الى العربية حمزة المزيني، وقدمت اجلال رأفت مقالا تحت عنوان «بين عجز الداخل وأطماع الخارج دارفور»، وترجم حمزة بن قبلان مقالا لـ«كيشور مهبوباني» تحت عنوان «هل يمكن للآسيويين أن يفكروا؟» وكتبت مها عبدالرحمن «المنظمات غير الحكومية، اللوبي الجديد في مصر»، وترجم أحمد محمود «الديانة الأمريكية» لـ«جوردون سي وود» وكتب «فكري آندراوس» العصيان المدني وسيلة للتغيير، وكتب خيري منصور «الترجمة من اعادة الانتاج الى الخيانة النبيلة» وكتب محمد المهدي «الغرب المغرور».

وترجم كل من علاء الدين محمود ومحمد مستجير وجمال اسماعيل، مقالا بعنوان «البطل الغربي» لنيكولاس رو عن روائي نوبل أورهان باموق الفائز بجائزة نوبل للآداب لهذا العام، وكتب صبري حافظ عن مجموعة محمد الشارخ «عشر قصص» تحت عنوان «من الغزو الى الترحال، هموم روائية» ونشر العدد فصلا من كتاب «ساعتنا الأخيرة» لمارتن ريز ترجمة مصطفى ابراهيم فهمي، هذا بالاضافة الى أبواب العدد الثابتة.

يقع العدد الجديد من «وجهات نظر» في 82 صفحة ويصدر عن مؤسسة دار الشروق للطبع والنشر.

«معطف لهذا الشتاء» للكاتبة ريم قيدوز

نصوص تتسلّل الى عنفوان الذات بين الاحلام والرغبات الضائعة

شمس الدين العوني*

■ بمنذ نعومة صدقي... كنت أعلم اني امرأة لن تحتفي الا بهزائمها... منذ تاريخ أول دهشاتي علمت اني لن أكون عروسا الا لانكساراتي...ّ

بهذه الكلمات وبهكذا احساس نلج كون الكاتبة لدى الكاتبة ريم قيدوز التي اصدرت مجموعة نصوصها تحت عنوان ّمعطف لهذا الشتاءّ وذلك في كتاب من القطع المتوسط وفي 120 صفحة عن سوتيبا قرافيك للنشر.

الكتابة فعل في ا لحياة ومرآة أخرى تبرز فيها وبها دواخل الذات وشواسعها وما يعتمل فيها من هواجس وأسئلة وحيدة وتثمين للعزلة والخسارات في هدأة من هذا الليل الانساني المخيف... لقد مثلت نصوص هذا الكتاب جانبا مهما من حياة الكاتبة التي تقصدت البوح نهجا في الكتابة باعتبار ما يتيه من تداعيات وسلاسة وصفاء وهي من استحقاقات القول الشعري زادت عليها ريم قيدوز شيئا من البذخ الحسّي والعاطفي المبثوث في أرجاء النصوص... الأمر الذي يجعل القارىء يكتشف من نص لآخر درجة التوهّج في مستوى التعاطي مع جراحات الذات وانينها الدائم وما يمثله ذلك من ايقاع ينتظم سياقات هذه الكتابة في معطف لهذا الشتاء. «أدور فوق جرحي، لا لون لدمي.... ونزيف قلبي يسيل فوق أوراقي ودفاتري... ألطم فجيعتي علّني أستفيق من كمدي...». بهذه الكلمات من نص ّهذيان الخاتمّ يختزل الكاتبة مدارات احوالها ونصوصها وهي اذ تكتب لونا من ألوان الفجيعة لديها فانها تبرز مدى احتراقها على ورقة الحياة حيث تظلّ اللغة صرختها المبينة وسؤالها الدائم المقيم بين الحالة والآلة.... العبارة هنا شهقة وافصاح عن الخيبات فالكاتب لا يملك في ضيق الاحوال والأمكنة الا اللغة المعقولة بالتأوّه والتنهّد بل يمضي أكثر باتجاه الريح يحدثها عن تواريخ الفواجع:

ّأعدّد في السرّ فواجعي... وبينهم أشرب قهوتي أحدثهم عن آخر ضحكاتي.... بينهم أدخنني لألقي في المنفضة كل احتراقاتي... تحت الطاولة أعانق اصابعي المأ فكيف لي ان أريهم تفاصيل شهقاتي....ّ.

يربط بين مختلف نصوص ّمعطف لهذا الشتاءّ جانب من دراما الذات التي اختزلت حيّزا من تجارب الانسان في هذا العصر الحديث انطلاقا من الخلاصات الثقافية والاجتماعية والانسانية التي يستبطنها الكائن البشري وهو يتعاطى مع تفاصيل اليومي بمختلف متغيراته وتمفصلاته ولعل الكاتبة قد أدركت هذا القدر من الفهم والوعي تجاه متطلبات الكتابة الادبية فمضت بالنص الى ما يشبه التداعيات التي اخذت من الاجناس اطيافها حيث تحضر الرغبة في احتراف المغامرة التي جعلت منها علامة تقاطع بين السّردي والشعري، وهنا يمكن ان نفهم هذا التأكيد على غلاف الكتاب بخصوص جنس الكتابة، فالنصوص تظلّ نوافذ مفتوحة على ما تقترحه الذائقة لحظة الكتابة وتتوزع الجمل فيه من قبيل التقطيع البصري الشعري أحيانا كثيرة بما يستجيب لانسيابية مرغوبة من الكتابة وهنا نلاحظ التنقيط الذي يفيد التواصل في الصمت وانفتاح العبارة والمعنى....

ومن العبارات المأخوذة المندفعة مما هو شعري وكامن في روح هذه الكتابة نذكر مثلا: ّفي مرافىء عينيك أضيّع اشرعتي...

المدينة ترتفع بشهقاتي...
أرقص بصمت...
للصمت اصوات كثيرة...
أرتدي فرحتي.... أجمع بقاياي
يرتجف ظلّ شوقي، يتلعثم القمر
أتمنّاك لغة...
وجهك أقصى امنياتي
ستائر النسيان... رقصة أخرى
نسجتها وحدي كلّ الصمت
للطعنات ألوان اخرى
لا يعرفها الا النسيان....

انّ هذه بعض أوجه حضور ما هو شعري في هذه الكتابات ـ النصوص التي تغمدتها صاحبتها بما هو وجع والوجع هنا في معطف لهذا الشتاء هو احتفاء آخر بالذات وهي تتعرّى بكثير من الانسياب والوضوح حيث لا مجال لفبركة الدموع والآهات التي تقولها الجمل التي تبدو في مواطن اخرى مبتورة وكأن الكاتبة ريم قيدوز أرادتها افصاحا أوليا عن شجن الحال وقد تقولها في كتابات لاحقة:

«عد الى بؤسك الاسود... لقد خيل عطرك وفاحت رائحة هزيمتك... فأنت رجل لم تعش الا مرّة واحدة.... وسيرة واحدة كنت تكتبها بالحبر الابيض رفقتي... فليكن بيتك القديم عزائي ودعواتي عليك ولك...

شكرا لأنك اخترت الرحيل قبل ان يجيء فصل الشتاء... تراني ماذا أفعل لو بلّلني المطر قبل ان اشتري معطفا يقيني برد... هذا الشتاء!؟...».

انها احتراقات امرأة بل خساراتها وهي تتدثّر بالكتابة، بهذا الصفف منها المتوزع بين الكبرياء والحنين والشجن والحيرة والانهيار والصمود والعزاء والحلم.... والصمت، كلّ ذلك نجده في نصوص معطف لهذا الشتاء وهنا تضعنا الكاتبة أمام سؤال مهمّ يتعلق بالكتابة التي تشبّهنا او بالأحرى كيف نكتب ذواتنا دون أقنعة سوى أقنعة الجماليات المطلوبة والتي تستقيها الكتابة اذا تعلّق الامر بما هو أدبي وفنّي... ثمّة شبه رابط بين نصوص هذا الكتاب وخيوط مشتركة تبرز في اسلوب التعاطي في خصوص الكتابة وطرائف التلوين والتنويع من حيث ما هو أدبي فهذه الكتابة التي عرفت بها ريم قيدوز منذ سنوات جعلت من هذه النصوص التي هي خلاصات بطاقات أسبوعية في المنابر الاعلامية المكتوبة، رافدا آخر يجد قراءه الذين يحبذون هذا الضرب من الكتابة المقيم بين القص والخاطرة والقصيدة وهذه أجناس ادبية هلا استحقاقاتها الجمالية والفنية كما لها روادها الذين عرفوا بها، الا اننا ازاء معطف لهذا الشتاء نج